أمي

بقلم
جمال الغيطاني

المرتقل .. اين راح .. ؟؟

لا اعرف والله .. لا اعرف ..

سرقته .. انت سرقته ..

لا والله ..

قل اين المرتقال ..

وضربني بيدها .. مرة ثانية بحذائها .. آلمني الكعب .. قصير لكنه آلمني .. مدبب .. وعلا صوتها ..

وضربني مرة ثالثة على صدغي ..

واسرعت الى المطبخ .. وبدا لي حجمها كبيرا .. ضخما ..

ساحضر لك الذي يجعلك تنطق .. العصايا يا ست .

تظلمت امي من خلف الباب الى .. ودق قلبي .. سقط وعاء نحاسي .. فكسر زجاج فوق البلاط .. وزاد صريخها .. خفت .. استمرت تروح وتجيء .. مرت عربة .. مسرعة .. هذا هو الشارع الكبير . ترام نمرتين ..

لونه اصفر . اهـــذه هي السبحة ؟ واطفال على السلم .. اخاف . عفر طفل . واسرع بعبور الشارع .. وقالت امي وهي تعزي هزا رفيقـــا .. لو ارسلتك تشتري شيئا اخـــذر ركوب الترام .. واذا ركبت فاحـــرص على الجلوس فوق مقعد واقطع تذكرة .. فعلتني فوق جبهتي .. وكنت اروح في النوم ببطء .. وصوتها في اذني .. ياه لسبت طعم صـــوتها .. لسته والله .. لارلت صغيرا يا ولدي لا تركب الترام .. انت اصغر من ســـلمه .. اخاف العبور . تمرق سيارات مسرعة كثيرة .. ومن الترام .. احدث صحيحا مجيها مرعجا .. وصرختي .. يا رب ياكلك الترام .. يا رب خبرك يجيء لي بمجرد خروجك .. يا رب . ونظرت مستعطفا الى أختي .. تقف صامتة .. فكرت في ان ارجوها .. فهي تحبهـــا ولا ترفض لها طلبا .. تقول لهـــا يا ماما .. اما انا لم أقلها بصوت عال من ســـوات .. يا نجوى انا شقيقك .. شقيقك والله .. قولي لها لا تضربني ولا تحضر لي العصا .. العصا تؤلم .. والله لم اسرق البرتقال .. ولم اذقه .. تحركت ناحيتهـــا .. وقصفت باقة جلبابي .. فجاء .. اسرعت تجري .. قفزت فوق السرير .. نظرت الى من فوقه .. ابتعد انت تريد ان تقتلني .. تكسر كوب آخر في المطبخ وراح الكعب الثقيل وجـــاء .. واصبح صـــوتها صخما .. والله لاقطعن لحمه والله .. وتفلص وجـــه اختي .. صاحت مرة ثانية .. ابتعد .. وادركت انني لازلت اقف مكاني .. فتراجعت .. وعيناي متســـودتان الى باب المطبخ .. قلت لا تعصبي يا أختي .. وبدأت تبكي .. وكررت لا تعصبي .. يا حبيبتي .. فقـــالت انا لست حبـــك . قلت لا تخافي .. لا تحســـاق .. ونظرت الى النافذة معلقة .. في عصر يوم مضى من سنة وأر الصراخ في الحارة .. نظروا من الشرفات .. على الارض كومة .. ممطاة باوراق الجـــرائد قالت امرأة بدينة . مسكينة روحها كان يضربها دائما .. ولو فعلت انا .. سيطلون .. من ؟؟ ابن فلان .. مسكين كنا نسمع صراخه دائمـــا .. كانت تضربه .. تصوري الساعة الثانية بالليـــل نسمع صوتهـــا وهي تضربه .. مسكين الله يرحمه .. اربعة جرائد تكفي لتغطية جســـمي .. ويجيء ابي .. من .. ابني مات .. » ويصيح انها السبب ويطلع اليها ويبتعد عنه الجميع ويكسر باب المخزن .. ويدخل الى المطبخ ويمسك بالسكين ..

انت السبب ..

لا والله ..

انت السبب ..

لم اتحرك الى النافذة .. وتساقطت اواني النحاس وراء بعضها .. ولم تعثر على العصا .. وتمنيت ان تأتي جارة لنا على صوت الصحة . وبهدوئها قليلا رأيت بحوار الباب قشرة برتقال .. لست ادري متى احضره ابي .. انت سرقت البرتقال .. كدت اصـــدم برجـــل .. مشيت على الرصـــيف

والعربات كثيرة .. عربات الجار .. والكارو .. والتاكسى .. والعاكهة .. والأوتوبيس .. والناس اكثر من العربات مر اطفال صغار .. بينهم بنت صغيرة .. حلوة لها ضفيرة صفراء .. ومر العيد الصغير اربع مرات .. والكبير مرتين وجاء رمضان وراح .. وفى الحارة اولاد .. لعبت معهم .. وقفت على بسطة السلم وضعت يدها فوق كتفى .. انزل يابنى العب معاهم حد فرشين واذا فرفعت بالونة احضر غيرها .. وكل بالوطنية وحلوى من الدكان .. من الدكان والمحها تطل من الشرفة .. اقف وسط الاولاد آخر حلة لونها اخضر ازرارها نحاسية صفراء .. أخاف ان امى ملامح وجهها .. وقفت مستندا الى جدار قهوة وبكيت .. وامسلا حلقى بكتلة غليظة .. وتطير بابى الى ..

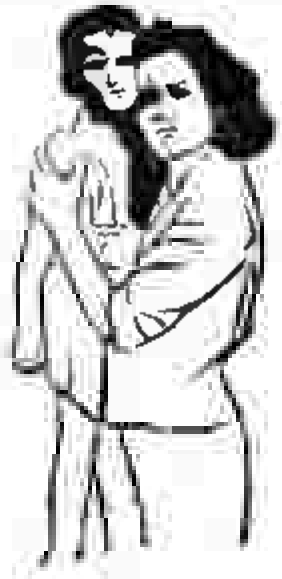

مسحت دموعى واصلحت المشى .. وقال ابى غدا صباحا سنزور امك .. ولم انم طوال الليل وحرصت الا احدث صوتا يشعرها انى مستيقظة .. فى الفجر فرت الى الأرض .. وتسللت الى حيث يرقد ابى .. ابى .. الديوك تصيح بلا انقطاع .. ومؤذن قريب وصوت قرآن .. وعواء كلب فى الحارة واصوات رجال هامسة .. خافتة .. عربية وبقلب فى فراشه .. قال .. ماذا جرى ؟ ونظرت اليها بحواره .. صدرها الصخم يعلو ويهبط بانتظام .. نائمة .. الى بلدهت لنزور امى .. نزور امى .. طرف اللحاف منحسر عن جسمه ناحيتها .. فتح عينه .. وتحرك لسانه وقال الدنيا برد الدنيا برد الم يكن صدرها يعلو ويهبط ؟ الم تكن ساكنة ؟ نهضت فجاة وصاحت يابنى اترك ابوك ينام الرجل عاد مرهقا من الخارج . امشى يابنى امشى .. وفرت من السرير .. واسرعت اجرى لحقتنى فى الصالة .. فمها يقول يابنى ثم .. يابنى استرح ويدها تمتد الى كل جزء فى جسمى .. لم انك .. وتناول ابى طعامه .. وكانت الساعة العاشرة .. جلست فى المطبخ .. شعرت به يومها باردا مخيفا .. واسمع والمسكن كله .. وامامى تجلس امى .. الموقد امامها .. تقلى الباذنجان — واسند راسى الى ساقها .. وآكل قطع الباذنجان البيضاء نيئة قبل ان تقليها فى الزيت وبكيت .. ونظرت الى باب الشقة .. لست لصا .. لم اسرق البرتقال .. ادخلت قدمى فى حذائى

القديم احنى تقف على السرير وكفت عن البكاء .. فتحت الباب .. وأسرعت أهبط السلم .. وخلفى آلاف الأيدى والأبواب تمتد لتمسكنى .. الطريق فى حارتنا بارد هذا صباح .. والشمس ساخنة .. واندفع بائع طعاطم .. وابى يجلس على قهوة فى هذا الشارع .. بجوار دكان صغير أبوابه مطلية باللون الأزرق .. يلعب الورق .. ويشرب الشاى .. لم أشك اليه أبدا .. لكنى اليوم سأكشف له جسمى .. وأريه مكان الشمعة والسيخ .. والعصا .. وأسنانها .. آه .. توقفت سيارة أتوبيس كبيرة وهبط الطريق رجل له ساق واحدة .. ملابسه ممزقة صفراء .. وشعره طويل .. رجف

الرجل بالقرب مني وفوق كتفه طفلة صغيرة .. صغيرة جدا .. رأسها كالليمونة .. ومد الرجل يده الى استاذ كالمدرس ولوح المدرس بشدة .. وتوارى الرجل عند ناصية الشارع .. انه مسكين .. هل يجد ما يأكله ؟؟ وكيف يحتمل الرجف هكذا بساق واحدة وبكيت .. ثم مسحت دموعي .. وعندما تلمت لأرى الرجل الذي يشبه المدرس لم أجده .. وعندما جاءت الى الشيخ قلت له .. أنا آسفة يا سيدنا الشيخ .. أعربه لأنه يعمل كذا .. وكذا .. وكذا .. وأعطته سلة مليئة بالقول والخبز لم أقل له انها تكلف .. وعندما خرجت من الكتاب آخر النهار .. لم أعرف كيف أمشي على قدمي .. أحسست بهما ضخمتين .. كل واحدة في حجم كتلة عجين ثقيلة ملتهبة .. ومشيت خطوة ثم أخرى .. وجلست بجوار الجسدار .. رجف صرصار ضخم بني بالقرب مني .. وتحللت قدمي طواعية من الشلل وكل نملة تقرصني ومرت من أمامي امرأة وتمنيت أن يراني أبي .. لكنه لم يجيء وارداد قدماي حجما وثقلا وكان هذا اليوم البعيد ساخنا .. أصفر .. يجلسني ابلي .. حتى الشمس الصفراء تهبط خلف البيوت وضوءها يتراجع واستطعت أن أحملق فيها وتذكرت العطائر الحمراء .. وبكيت .. وخيل لي أن وجه أمي يختفي خلفها وبكيت .. وأصبح اليوم الحار باردا مخيفا .. وخلت الشوارع من المارة .. وتذكرت يوم وقفت فيه مع الأولاد أمام عتبة مرزنا .. وقال ولد .. اذا أكلت شعره من رأسك فلا بد أن تموت .. واستعسرت الأصوات .. وسألت أبا .. ورحنا نتطلع اليه .. وهو يتكلم وأفواهنا مفتوحة من الخوف .. وآلمني ظهري .. ورأيت موقف الأوتوبيس ترعت خمس شعرات من رأسي وأكلتهم مرة واحدة .. بلعتهم .. وانتظرت أن أموت .. ورجف الليل بسرعة وفي ليلة قال أبي احذروا اطلاع أطافركم ان هذا يميت .. وقصصت بأسناني كل أظافر يدي وقطى اللون الأسود السماء كلها .. وراحت العطيرة الحمراء ودارت آلاف الألواح الثلجية في الهواء .. ولم أمت .. مررت أمام صيدلية كثيرا ما جئت مع أبي اليها .. أمسك بذيل جلبابه .. واقف بجواره .. يقدم ورقة الى رجل يرتدي نظارة بها سلك .. ويدفع لي ونعود بصناديق صغيرة عجيبة .. وحقن يبتلعها جسم أمي بعد ذلك لم أجيء الى هنا أبدا .. وقفت ونظرت الى الداخل آه لو أرى الرجل ذو النظارة .. أين هو ؟؟ غير موجود أين ذهب؟؟ آه لو رأيته سأساله أتذكرني يا عم هل عندك حقن تعيد الميت ؟؟ وبحثت عنه في الصيدلية .. ولم أجده .. وجاء أبي بعروسة وعربة .. وصاحت نجوى بفرحة واختطفت العروسة هزرتها .. وجلست بالقرب من باب دورة المياه .. أحاول ألا أنظر اليها حتى لا يقولا أبي أحدهما .. بلعت لعابي .. ودخلا الحجرة .. وقال أبي كبرت على هذه الأشياء قم لتنم قم ..

ظلت نجوى وحدها في الصالة .. تنادي عروستها .. اقتربت منها .. نظرت الى صمت عروستها الى صدرها ابتسمت .. قلت ..

هل تحبين أن أدير لك مفتاح العربة؟؟

ظلت صامتة .. نقلت العربة الى الناحية الأخرى .. قلت لا تخافي .. سأعلمك كيف تمشين .. فجأة .. بدأت تبكي ..

خرج .. وقف ينظر الى ورفع يده .. هوى بها فوق وجهي مرة .. وصفى مرة .. صفعني مرة .. مرتين ثلاث مرات لم أبك .. لم أبك أمامه أبدا .. ولا أمامها لو ارتفع صوتي

ستسمع امي وانا لا احب ارعاجها هكذا قالت جدتي عندما زرتها آخر مرة .. ولم نزرها بعد ذلك ابدا .. ذهبت الى بلدتها في آخر الصعيد .. وعندما تشتمني الصحفة تقول يا بن الصعيدية الاولاد في سنك يعملون ماسحي أحذية .. ولو اعرف الطريق الى بلدة امي .. لكنهم يقولون انها بعيدة يمشون اليها شهورا وشهورا ..

من القهوة خرج رجل كمساري يلبس جلة صفراء .. قبر امي لا يحتاج الى ركوب سيارة .. خلف هذه البيوت .. فوق الرصيف .. يجلس رجال يلعبون .. البعض يضحك .. صوت مذياع .. اين اني؟! آه .. يجلس مع واحد .. اثنان .. ثلاثة .. يلعبون الورق .. يشرب الشاي ويضحك ..

ماذا سأقول له ؟؟

هربت من البيت لانها ستقتلني ؟؟ طردوني .. ضربني قالت لي امك سرقت البرتقال هل ترضى ان يقال عن امك انه لص يا ابني ؟؟ اكشف له ظهري اريه .. الجروح .. لكن امام الناس ؟؟ ربما يضربني .. هل أطلب من الجرسون ان يهمس في اذنه .. هناك ولد يريدك عند الناصية ؟؟ وفي صباح ذلك اليوم جلست انتظره حتى يخلي بعضه وعندما اقتربت منه قلت .. الم تعدني بانك ستذهب لزيارتها امس ؟؟ نظر الى عاد الى قراءة الصحيفة .. آه .. تقطع قلبي .. دارت امعائي في بطني .. قال سنزورها في يوم آخر .. حدد قرشا واذهب اشتر لك حاجة ..

لم يذكر لي الامر بعد ذلك .. ابدا .. ابدا .. يده ترتفع وتهبط بورقة هل تهبط على وجهها كما هوت على وجهي؟؟

لو حدث هذا فسنسمع صوت عالي ..

لم يضحك معي من مدة .. مدة .. مدة بعيدة ..

يتراجع بالكرسي الى الوراء ..

لم يقلني من زمن ..

يشرب شايا ..

ياكل دائما معها .. لم آكل معه ابدا من مدة ..

يضحك .. ويضحك ..

اهذا انت يا ابني ؟؟ كانك لم ترني ابدا ...

وهل هذه اول مرة تراه يضحك فيها .. لا بل رأيته كثيرا لم يكف عن الضحك .. صحيح ضحك وضحك تراجعت الى الخلف .. بدات اشعر بكتلة صغيرة مؤلمة في حلقي بدقة .. بكيت .. مررت بالصيدلية .. نظرت الى داخلها .. لم ار الرجل .. غير موجود مر حولي رجال ونساء واولاد يلبسون اردية المدارس .. هيه هيه .. بنات وعربات وكلاب .. ولم ينظر الي احد .. لن اقطع شعري لن اكل اظافري الشمس ساخنة لكني مضيت حتى الصحة .. وتركت ورائي ميدان الازهر وموقف العربات والطريق الذي يشق الجبل الى الداخل ..

سيعود من المقهى ..

قد يسأل وقد ينسى ولا يسأل الا غدا.. ستقول انها لم ترني .. ساري امي مرة اخرى حتى لا انسى وجهها .. ستفرح لانها لم تكن تطيق البعد عني.. وامضي شهور .. شهور .. الى اين .. الى اين ؟؟؟